ديمومة المؤسسات

إن البقاء للأمة ، والدولة .. والفناء للأفراد – وتنوع الرعيَّة .. ولقد عرفت المجتمعات الإسلامية ، وخاصة الزراعية منها المؤسسات ، والتنظيمات الإدارية .. ولما جاء الإسلام أصل هذا الفكر علي أسس جديدة .. لا فضل لعربي علي عجمي ، ولا لعجمي علي عربي إلا بالتقوي .. والكل سواسية كأسنان المشط .. ليس معني هذا أن العالم الإسلامي كله ظل وحدة واحدة مترابطة ... بل شهد العالم الإسلامي عصوراً من التفرق .. والتشرذم عقب وفاة الملوك .. العظام .. فعقب الوفاة كانت تتفرق الممالك بين الأبناء ، ويشتد التطاحن بين الأسر الحاكمة .. شاهدنا ذلك علي صفحات التاريخ .. في عهد الأمويين .. والعباسيين .. والسلاجقة .. والمماليك ، والعثمانيين ... كان الخاسر في كل هذه الصراعات هو الأمة الإسلامية .. وفي الفترات التي كان يسود فيها الوحدة .. والتوحد .. سمت الأمة الإسلامية وعلا شأنها .. إرتقت حضارتها .. وأثرت في الحضارات الآخري .. وصفحات التوحد مرصودة ومسجلة ، كما أن صفحات التشتت ، والفرقة مرصودة .. ومستهدفة . مَنْ منَّا لا يختلج فؤاده بصفحات التوحد عند صد العدو الغادر .. ومَنْ منَّا لا يتمزق قلبه مع تمزق العالم الإسلامي في فترات التشتت . الخاسر هو الأمة .. في فترات حاسمة في تاريخ المجتمعات الإسلامية كانت الدولة تعني الأمة .. والأمة تعني الدولة ، وكلاهما يعني الديمومة ، والإستمرارية .. هذا التَوحَّد هو الذي ضمن الإستمرارية .. وهذه الإستمرارية – في فترات القوة – دعمت هذا التوحد .. والأمة – والدولة ذات المؤسسات هي التي طالت ديمومتها .. وفرضت إستمراريتها .

لا يمكن أن نقبل بيننا ؛ من لا يقبل فكرة ديمومة الأمة الإسلامية ، حتي وإن إختلفت أشكال دولها .. فالأمة ، والدولة أي الأمة ، و المؤسسات هما أساس الديمومة .. نمط الحكم وطرزه ، وأشكاله .. ما هي إلا كالقشرة التي لا تمس الجوهر ، إن هي إنتزعت .. هي كالشرنقة التي لا تخنق ما بداخلها .. بل تحميها إلي أن تتهيء لها الظروف .. ويشتدعودها .. من هذا المنطلق .. يجب أن يتاصل فينا فكر الخلود للأمة .. وديمومة مؤسساتها .. لابد أن يتعمق هذا الفكر فينا .. ويتخلل ، بل يمتزج

بحياتنا اليومية .. يجب أن نبني مؤسساتها علي إعتقاد أن الغد يُعلي الأمس .. وأن اليوم هو إستمرار للأمس ، وتمهيد للغد ... إن فُقدان الجهد فيما نبذله من هدم لمؤسسات الأمس .. لابد وأنه سيقوض الدعائم التي نشيد عليها حضارة القرن الجديد .. لا مانع من أن نُعدِّل المسار ، ونُقوِّم المعوج .. حتي ندخل سباق القرن الواحد والعشرين علي أسس متينه ، ودعائم متطورة ..

إن القائمين علي دواليب العمل ، والآخذين علي عاتقهم تسيير حركة هذه الدواليب .. يجب أن يتخلصوا من فكرة فساد السابق عليه .. إن تفشي مثل هذا الفكر يحبسنا في دائرة الفساد ، ويُبعدنا عن دائرة الضوء .. بل يجب أن ندرك أن البناء قائم .. ومستمر .. وكل منّا مطالب بأن يُضيف في مكانه لبنة .. أو أن يُضفي بسمة ، لابد أن نبدأ من حيث إنتهي مَنْ تولي مسئولية المكان قبلي . وأن أُسلم مَنْ يجيء بعدي ، وقد تقدم البناء خطوة ، أو سمي درجة .. إن تصرفنا عكس ذلك ، فإننا نُعوِّق ديمومة دولة المؤسسات .. ونسبب ضرراً للأمة ، بالجهد الضائع .. والوقت المفقود .. والثروة المهدرة .. إن الدولة تُقاس بمدي إعتمادها علي صمود مؤسساتها ، وبمدي تطور هذه المؤسسات ، مع الحفاظ علي أصالتها .. ويجب ألاَّ يتبادر إلي الذهن أن هذا الذي يُقال ؛ لا يمنع التغيير .. ولايصد التطور ، ولا يحول دون التقويم .. والتقييم المستمر .. ولكن بشرط أن ألا يكون التغيير للذات .. والتطوير من أجل فئة علي حساب الكل .. بل يجب أن يكون التقييم ، والتقويم ؛ منطلقاً من مفهوم خدمة الدولة التي تعمل علي خدمة الأمة ، التي هي الشعب ...

* * *